

سورة يوسف: دروس وعبر

تأليف

سعيد الأعظمي الندوي

تعريب

محمد فاخر صبا

مكتبة الفردوس، لکناؤ (الهند)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ الموافق ٢٠١٨م

اسم الكتاب	: سورة يوسف : دروس وعبر
مؤلف الكتاب	: سعيد الأعظمي الندوي
اسم المعرب	: محمد فاخر صبا
طبع على الكمبيوتر	: عبد الكريم الصديقي الندوي

Mobile: +91-9452125145

اهتم بالطبع

محمد عبد الله المخدومي الندوي

يطلب الكتاب من :

المكتبة الندوية ندوة العلماء ، لکناؤ

مکتبة الشباب العلمية ، مکارم نغر ، لکناؤ

مکتبة إحسان ، مکارم نغر ، لکناؤ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالقرآن كتاب الله تعالى، وهو خزينة علوم ومعارف، ومنبع أسرار وحقائق، لا يمكن لأحد استكناه بحره، وسبر أغواره، فيستخرج جميع ما فيه من درر ولآلئ، وكل من خاض فيه اعترف بكل صراحة أنه صبي قام مشدوهاً أمام بحر هائج مائج، ولا شك أن القرآن يزخر بعلوم وفنون، لا يأتي عليها الحصر، ويمتلى بتعاليم وتوجيهات، هي دعائم الكون والحياة والإنسان.

وقد توصل علماء التفسير بعد جهود مضية إلى أن علوم القرآن ثلاثة: التوحيد والتذكير والتشريع، ويتناول علم التذكير في القرآن الكريم: التذكير بآلاء الله والتذكير بالموت وما بعد الموت، والتذكير بأيام الله تعالى، ومن أيام الله تعالى قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومعلوم أن بعض قصص الأنبياء قد تكرر في القرآن الكريم، وبعضها لم يتكرر، فالقصص التي لم يتكرر منها قصة يوسف عليه السلام، وقد سماها الله تعالى بأحسن القصص، فإنها صورة صادقة لحياة إنسانية يعيشها الإنسان من ولادته إلى وفاته، وهي نموذج لكل طبقة من طبقات الإنسان، فقد اجتمعت في هذه القصة من العبر والدروس ما لم تتوافر في قصة قرآنية أخرى، وهي تسلط ضوءاً كاشفاً في كل جانب من جوانب الحياة، كما تكشف جوانب مخبوءة من النواحي الاجتماعية، وهي جديرة بأن يطالعها كل إنسان ليستفيد منها خلال ممارسته العلمية والعملية.

ألف هذا الكتاب سعادة أستاذنا الدكتور سعيد الأعظمي الندوي حفظه الله ورعاه، وهو فارس حلبة الرهان و سابق قصب الميدان، تناول فيه ذكر قصة يوسف بكاملها، لكن بدأ الكتاب من ذكر القصة وعناصرها وميزاتها، فهو يقول: "القصة عبارة عن عرض الحوادث والوقائع بأسلوب رائع طريف عند الأدباء، ولها عنصران أساسيان: الخيال والوجدان، وهي تشتمل على جوهرة القصة والميزات الفنية". وقد تجلت هذه العناصر والميزات في هذه القصة القرآنية، فكل من تلاها أو قرأها شهد بتأثيرها العميق وعرضها السديد.

لم يكتب المؤلف حفظه الله بسرود القصة فقط، بل ركز على بيان أن حياة يوسف عليه السلام مليئة بالحنن والابتلاءات، فما يخرج من مِحْنَةٍ إِلَّا وَيَدْخُلُ فِي مِحْنَةٍ أُخْرَى، ابتلي في بداية حياته بحسد إخوته، ثم فتنة امرأة العزيز، وأعظم هذه البليات والحنن تقلده مسئولية وزارة المالية الحكومية، وقد أداها على أحسن ما يرام، بحيث أُنقذ الشعب والبلاد من المجاعة إلى السعادة والرخاء، وكانت هذه البليات سُلماً للوصول إلى منازل عالية، ومراتب رفيعة كما قال تعالى: "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [يوسف: ١٩٠].

هذا الكتاب القيم لا يتناول القصة بنصها وفصها فقط وفق ما جاء في القرآن الكريم بصدق وأمانة، بل يزخر بكثير من النكت العلمية والإصلاحية، التي تكون نبزاً في بناء الحياة المستقبلية، وهذه النكت هي دروس مستفادة أو نصائح مستقاة من غضون هذه القصة، فمثلاً يستنبط المؤلف حفظه الله نكتة من هذه الآية: "يَبْنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ" [يوسف: ٦٧]: "استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكروه أو الرفاعة لها بعد نزولها غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيئاً إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر لأمر يعقوب عليه السلام حيث قال لبنيه: "يَبْنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ"، ويقول: "كل خير في الدنيا والآخرة من آثار التقوى والصبر، وعاقبتها أحسن العواقب لقوله: قَدْ مَنَّْ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ

لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"، وقال وهو يستنيط نكتةً من دعاء يوسف عليه السلام (رب قد آتيتني من الملك.....): "ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة". هذا، وأمثاله من الفوائد الجليلة التي تتحلى بها صفحات الكتاب، وتزدان بها المكتبات القرآنية.

فسرّ المفسرون الكرام عبر العصور سورة يوسف موجزاً ومسهباً، وذلك في تفاسيرهم العلمية، وقد أفرد بعض منهم كتيبات ورسائل لبيان معانيها وشرح مفاهيمها، ولكل منها لون خاص، وأسلوب متفرد، يوافق وعصر تأليفها، لكن هذا الكتاب يصدر في عصر يجتاز فيه الناس ولا سيما المسلمون بأزمات ومشاكل على الصعيدين الدولي والإقليمي، ويصدر من صاحب صارت تلاوة القرآن غذاءه وروحه، وأصبحت ذوقه ووجدانه، فلا تنفك منه هذه الوظيفة أينما حل وسار، وحيثما راح واستراح، وقد نهل الموضوع وعلّ، فكتب بريشة قلمه، بل بأهات سحره وحرقة قلبه، وسيكون الكتاب أكثر نفعاً بسهولة أسلوبه، وقصر حجمه، وجمال تعبيره، ورشاقة قلمه بإذن الله تعالى.

ندعو الله تعالى أن يبارك في عمر المؤلف حفظه الله ورعاه، ويوفقه لمثل هذه الإنجازات القرآنية بفضله وكرمه. والله ولي التوفيق.
والله يحب المحسنين.

كتبها

محمد فرمان الندوي

أستاذ التفسير والأدب العربي

بجامعة ندوة العلماء، لکناؤ

هـ ١٤٣٩/٦/١٤

م ٢٠١٨/٢/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم من الكاتب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وإمام المرسلين والمتقين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد! فإن قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم من أحسن القصص التي تحمل في طيها عبراً ودروساً عجيبة ، وتفصل نفسية الإنسان بجميع أنواعها ومراحلها التي تظهر في الحياة والمجتمع بأشكال مختلفة وألوان متعددة جذابة ، ينخدع بها الإنسان في بعض الأحيان ، ويتسفل إلى آخر درك من هوى النفس بفعل نفثات شيطانية تكاد تفترس الإنسان وتزلقه إلى مزالق يصعب الخروج منها ، ولكن المؤمن الذي تدركه رحمة الله تعالى ينجو بنفسه من جميع المزالق الخبيثة التي تقضي على جوهره الإيمان والورع لدى الإنسان المؤمن .

أليس في قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام جميع هذه المعاني ، وهي تشير إلى أن كيد الشيطان لا يؤثر في نفس الإنسان المؤمن مهما كان خفياً ، كما قد أخبرتنا هذه القصة الصادقة التي تحدث عنها الله سبحانه بغاية من الصراحة والوضوح والبيان المعجز ، ولا شك أن الإعجاب بنعم الله تعالى والتشوق إليها

بإخلاص النوايا يجلب رحمة الله تعالى نحو العبد المؤمن ، فيكون ضمن السعداء الذين يحظون برضا ربهم الجليل والتوفيق الكامل منه لكل خير وصلاح ، ولنشر دينه في جميع المجتمعات البشرية وإعلاء كلمة الله تعالى وتنفيذ تعاليم الدين بمفاهيمها الشمولية.

لقد كان الحسد من الأمراض النفسية من أول خلق ، منذ حسد الملك عزازيل ، آدم عليه السلام ، وحاول أن يجرمه من شرف النبوة والخلافة المهداة من الله تعالى إليه ، لأهل الأرض ، وإسكانه هو وزوجته الجنة ، ولكن إبليس لم يُعجبه شرف هذه المكانة التي أكرم بها سيدنا آدم عليه السلام وزوجته حتى إذا أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود له فسجد كلهم إلا إبليس أبى واستكبر ، ولم يمثل الأمر الإلهي وكفر ، فأصبح مطروداً من رحمة الله تعالى ، وبدأ ينتهز الفرص لإخراجه من الجنة وتزيين معصية الله تعالى له ، وإرضائه بالتقرب إلى الشجرة الممنوعة المحرمة له من الله تعالى.

وذلك ما بينه الله تعالى في مفتاح سورة البقرة من كتابه المعجز القرآن الكريم حيث قال :

"وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى

حِينَ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"
[البقرة: ٣٤ - ٣٧].

ومن ثم فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وإن لنا في هذه القصة معاني عديدة من هذا المثل أو الأثر الذي نقرؤه في الكتب الدينية، أليس عزم الإخوة على إهلاك يوسف عليه السلام، وإلقاءهم إياه في غيابة الجب أكبر دليل على الحسد الذي أصيبوا به ضد أخيهم العزيز، فكان مآل ذلك ما قد عاشته جماعة الإخوة الكرام من قلق وألم عاشوهما بعد ما صدر منهم ما صدر ضد أخيهم العزيز وعقوق الوالدين وقطع الرحم ومعصية الرحمن.

الواقع الذي كابد به ما كابد يوسف الصغير نتيجة لسوء فعلهم ولو لمدة قليلة، ولكن العاقبة كانت ذات عزة وسلطان، ومنصب كريم من الوزارة ثم الملك المتمكن في مصر. وفي جانب آخر أحاطت الجماعة جماعة الإخوة الذين خرجوا في طلب الرزق ووصلوا إلى الملك يوسف عليه السلام دون أن يعرفوه وطلبوا منه الكيل دفعاً لحاجة الطعام في بلدهم، ونالوا من الضيافة السخية والعطاء الكبير من الكيل (غلات الطعام) فلما رأوا هذا العطاء السخي طلبوا منه كيلاً باسم أخيهم بنيامين الذي بقي عند أبيه الشيخ طمأنة لقلبه، ولكنه أبى أن يأمر بإعطاء طعام لامرئٍ ليس حاضراً، وأمرهم بإحضاره معهم في المرة القادمة، وهكذا كان، كأن الحسد قد أذاهم إلى التسول بمن حسدوه وألقوه في غيابة الجب، وأتهموا بالسرقة

والخيانة وتُودوا "أَيَّتَهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ" [يوسف: ٧٠]، وذلك أقل مستوى لشخص بأن يلقب ويُدعى بالسارق.

إنه نبي من الأنبياء المختارين من عند الله تعالى، ولذلك لما تكشفت عليه حقيقة الواقع، فور ما دخلوا عليه مرة ثانية و"قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَمَلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ" [يوسف: ٨٨] لم يتمالك يوسف عليه السلام نفسه، وقال: "هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ" [يوسف: ٨٩] وهنالك عرفوا يوسف عليه السلام وأثنوا عليه، واعتذروا إليه من الذنب العظيم الذي صدر منهم وصرحوا به: "قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ" [يوسف: ٩١]، ولكن لم يك من يوسف النبي عليه السلام إلا أن قال: "لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" [يوسف: ٩٢].

وتنتهي السورة بالدعوة إلى الله الواحد القهار دعوة التوحيد وإنكار الشرك الذي كان أمراً سائداً في ذلك العصر، ثم إثبات الرسالة التي كان الناس قد تناسوها يوم ذلك، وأغفلوها ونسوا دار الآخرة.

اقرأوا معي:

"قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ" [يوسف: ١٠٨ - ١٠٩].

يسرني أن أقرأ هذه القصة التي سمّاها الله سبحانه وتعالى أحسن القصص في هذه الرسالة التي كتبتها باللغة الأردنية، وبدا للأخ العزيز فاخر صبا (طالب السنة الأولى للتخصص في الأدب العربي) أن يقوم بترجمتها بإشراف الأخ الفاضل الدكتور محمد فرمان الندوي (أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية وآدابها)، فجزاهما الله بأحسن ما يجزي به عباده العاملين الناصحين. والله يحب المحسنين.

كتبها

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"

ندوة العلماء، لکنائو

١٤٣٩/٥/٢٥ هـ

٢٠١٨/٢/١٤ م

القصة الإسلامية نموذج عال للموضوعية والجمال الفني في ضوء سورة يوسف

القصة وعناصرها:

القصة عبارة عن عرض الحوادث والوقائع بأسلوب رائع طريف عند الأدباء، ولها عنصران أساسيان: الخيال والوجدان، وهي تشتمل على جوهره الموضوعية والميزات الفنية، لا يمكن أحداً أن ينكر أهمية القصة ودورها الأساسي في الأدب الإسلامي، والجانب المهم الذي يجب اعتناؤه في القصة هو أن تكون القصة مرتبة الألفاظ والكلمات، ومنسقة الخيال والفكرة، بحيث يسهل فهمها ولا يصعب على القارئ والسامع، التوصل إلى مغزاها، لكي يستخرج منها من الفوائد الأدبية والنكت العلمية ما يستمتع منه مدى الحياة.

مميزات القصة الإسلامية:

ومن ميزات القصص الإسلامية أنها تكون على جانب كبير من الصدق، والفنية، والبنية، والقيم الخلقية العالية والمثل التربوية والعقلية والنفسية، وإن جميع القصص التي وردت في القرآن الكريم انطوت على الخصائص الفنية والأدبية والتربوية والدعوية بأسلوب مؤثر، ولكن القصة التي تحتوي عليها سورة يوسف تحتل مكانة خاصة في الأدب الإسلامي، وبها امتازت على جميع القصص القرآنية، كما

نرى في سورة يوسف أنها ابتدأت بذكر الآيات الباهرة للكتاب المبين وسبب نزوله باللغة العربية، فقال مؤكداً: "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (يوسف: ١ - ٢٢)، ثم أعقب الله تعالى ذلك بقصة يوسف عليه السلام فبدأها بأسلوب أخاذ مليءٍ بالجوانب البلاغية والفنية مخاطباً لرسوله الأمي محمد العربي صلى الله عليه وسلم، وجعل سيدنا يوسف رائد هذه القصة، وشمل القرآن من بداية حياته إلى نهايتها بأن بلغت فيها الفصاحة والبيان إلى ذروة سنامها، وإلى حد يقصر عنه قوى البشر من الفصحاء والبلغاء.

حياة مليئة بالحن والابتلاءات:

إن شخصية يوسف عليه الصلاة والسلام قد واجهت كل نوع من الأوضاع والأحوال التي يمر بها إنسان في حياته، نجد في حياته حزناً وألماً في جانب، وفي جانب آخر سروراً وحبوراً، وكانت شخصيته تواجه أحياناً يأساً وقنوطاً، وأحياناً ابتلاءً شديداً، إنه ابتلي بحسد إخوته وبإلقاءه في الحب المظلم والتقاطه بعض السيارة، وشراؤه في سوق مصر بدراهم معدودة، ومرأودة امرأة عزيز مصر إياه عن نفسها والجدب العام الذي ساد البلاد كلها، واعتقاله في السجن، وأعظم هذه الابتلاءات والحن تقلده مسئولية وزارة المالية الحكومية المصرية، لأن هذه المسئولية تقتضي الفطنة والشعور بالمسئولية وأدائها بأحسن ما يرام، فخرج سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الحن المتواليات بدون تلوث بفسادها، فصارت هذه الحن سلماً للوصول إلى مدارج عالية وسبباً لرقى واسع في حياته ونيله رضا الرب وقربه،

وقدوم إخوته إليه مؤدبين ونامدين على ما فعلوه، وكونه قرّة عين لأبيه يعقوب عليه الصلاة والسلام ومشاهدة تأويل رؤياه التي رآها من قبل، وفيها إشارة صريحة إلى أنه يُرفع ذكره ويحصل له شرف وكرم فيما بعد، وذلك بقوله "رَبُّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ" [يوسف: ١٠١] يتجلى منه أيضاً أنه سيكرم بالنبوة والوحي الإلهي، وقوله "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [يوسف: ٩٠]، ويدل أيضاً على أن من يتبلي بما ابتلي به فصبر فأفلح ولم يُحبط عمله.

وليعلم أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة أخرى قاسية، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز، من رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصّها فأحسنها، ووضحها وبينها.

قصة يوسف دليل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: "تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ" [يوسف: ٣]، ويوجد فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين بل كان يراه قومه بين أظهرهم صباحاً مساءً، وهو أُمي لا

يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

قصة يوسف:

ونذكر الآن القصة الواردة في هذه السورة الكريمة بإيجاز.

رؤيا عجيبة:

ولما بلغ سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام السابعة من عمره رأى رؤيا عجيبةً مذهشةً، رأى أحد عشر كوكباً من كواكب السماء، خرت ساجدةً بين يديه ورأى كذلك الشمس والقمر يسجدان له مع الكواكب، فقص هذه القصة على أبيه يعقوب عليه الصلاة والسلام، وهنا أدرك يعقوب ما هياً له القدر من مكانة رفيعة، وخاف عليه من حسد إخوته، فنهاه أن يقص الرؤيا عليهم، وأن يبدي ما خفي عليهم من هذا السر.

نكتة: نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: "وَكَذَلِكَ يَجْتِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ" [يوسف: ٦]، ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

حسد إخوة يوسف:

ولكن إخوته قد اطلعوا على هذه الرؤيا وتأويلها بأي طريق،

فجعلوا يكيّدون ويمكرون لإهلاكه وإبعاده عن أبيه بطرق شتى ، وعزموا على التخلص من أخيهم يوسف والتفريق بين الأب وابنه يوسف الصغير ، وهامهم يقدون أباهم ويتلففون به ليرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا أمام أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف ، وفي غاية الشفقة عليه ، وطلبوا منه أن يسمح لهم باصطحابه ليذهب معهم ويرتع ويلعب معهم في الصحراء ، فهناك اضطرَّ يعقوب عليه الصلاة والسلام إلى أن يسمح لهم بذلك ، ولم يجد بُدّاً من أن لا يرسل يوسف مع إخوته ، فأرسله معهم على كره ومضض ، وقال : إني أخاف عليه من الذئب أن يفترسه وأنتم غافلون عنه ومنهمكون في أشغالكم ، ولكن إخوته كانوا أصحاب دهاء ومكر ، فقالوا : كيف تخاف عليه من الذئب ونحن جماعة أقرباء أشداء ، فوالله لئن أكله الذئب فلسنا بعصبة أولي القوة ، وإنا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسارة والدمار ، فأذن لهم متخوفاً عليه ومتجلداً ، وما أن غابوا عن عينيه حتى جعلوا يسيئون إليه ، وعزموا على إلقاءه في غيابة الحب ، فيقول ربنا جل وعلا : " فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " ليوسف : ١٥ .

رجوع الإخوة وبكاؤهم عند يعقوب عليه السلام :

أما إخوة يوسف فقد رجعوا إلى أبيهم عشاءً ويكون ، ومعهم قميص يوسف - عليه السلام - عليه دم شاة ذبحوها ليوهموا أباهم أن الذئب قد عدا على أخيهم فأكله ، وقالوا متأكداً : " القول ما نقول ، ولكنك لا تصدقه ، ولا تثق بأمرنا ، ففطن سيدنا يعقوب

لمؤامرتهم وحقية مكيدتهم، وقال: إن هذا إلا ثمرة شحناء نفوسكم وحقد قلوبكم، وليس لي إلا صبر جميل فأوتره، وفي ذلك يقول الله تعالى: "قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ" [يوسف: ١٨]، ففعل إخوة يوسف ما فعلوا، ورجعوا بعد ما رموا أخاهم الصغير المسكين في القعر المظلم.

قافلة أخرجت يوسف من البئر:

فما أن عادوا إلى المدينة، ووصلوا إليها إذ مرَّ بهذه الغابة قافلة تجارية فبحثوا عن الماء، فأرسلوا أحدهم ليأتيهم بالماء، فلما ألقى هذا الوارد دلوه، فإذا يوسف الصديق تعلق به وخرج مع دلوه، فلما رأى حسنه وجماله نادى بأعلى صوته مبتهجاً ومبشراً برفقائه: "يا بشرى! هذا غلام جميل" واختبأ بضاعة لبييعوه في سوق مصر، فلما وصلوا إلى أرض مصر باعوا يوسف الصديق بأبخس الأسعار وأنقص الأثمان، انتهز عزيز مصر هذه الفرصة، وبادر إلى اشتراؤه، وقال لزوجته: أكرمي مثواه وأحسني إقامته، أظن أن هذا الولد قد سلَّ عن ماجد محض، ولعله يكون لنا نافعاً أو نتخذه ولداً، وقال الله عز وجل: "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [يوسف: ٢١].

محنة شديدة في قصر مصر:

فهناك بلغ يوسف من رزانة العقل ورشده، أكرمه الله تعالى بالحكمة والفقه في الدين، هذا جزء الابتلاءات والمحن التي أتمها

يوسف عليه الصلاة والسلام يعون من ربه ، ولكن ما توقفت هذه السلسلة الابتلائية ، وهي ما زالت باقيةً إلى أن عشقته امرأة العزيز ودعته إلى نفسها ، وجميع أبواب القصر أغلقتها . وأحكمت إغلاقها ، وكاد يركن يوسف إليها لولا أن رأى برهان ربه ، فجعله هذا البرهان صامداً أمام تلك الفتنة العارمة التي تثير وتحرك شهوة الإنسان ، وكيف لا يكون ذلك فإنه من عباد الله المتقين والمخلصين ، فأسرع يوسف الصديق إلى الباب الرئيسي وتخلص من يد امرأة العزيز ، وهرب ، وأخذت امرأة العزيز تلاحقه وتطارده فأمسكت بقميصه من خلف ، فتمزق الثوب ، وظلت تلاحقها وهو يسعى ويريد الخلاص منها ، واستبقا الباب ، فبينما هي كذلك إذ فاجأت وجود زوجها ، فاندفعت تطالب سيدها للعقاب الشديد لمن أراد أن يخون شرف سيدها ، إما أن يدخل في السجن أو يضرب ضرباً شديداً موجعاً على جريمته الشنيعة ، فهنا يدافع يوسف الصديق عن نفسه قائلاً : أنا بريء منها ، وهي راودتني عن نفسي ، وظهر شاهد آخر في تبرئة يوسف وهو طفل صغير من أسرة العزيز أو أقرائه جعله الله برهاناً على عفة يوسف وحجة على نزاهته ، وهو يقول في عصمته : "إن كان قميصه قد من قبل فيوسف هو الخائن ، وإذا لم يكن كذلك فهو من خيانة امرأة العزيز ومكيدتها العارمة ، فلما فتش عن ذلك تحققت براءة يوسف وأمانته وعُرفت خيانتها ، فقال العزيز مخاطباً لأهله : "إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ، يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ" [يوسف : ٢٨ - ٢٩] ، لقد شاع هذا الخبر الواقع بينهما في

أرجاء المدينة ، وأخذت ألسنة النساء تلوك في امرأة العزيز استهجاناً لها ولوماً وعتاباً على صنيعها الشنيع : أسيده تعشق عبدها؟ إن هي إلا من أكبر الفواحش وأقبح السيئات.

لما بلغ ذلك الخبر امرأة العزيز دبرت مكيدهً وأرسلت إلى صديقاتها العاذلات ، وصنعت لهن مآدب من أنواع الفواكه والطعام ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لأن يقطعن به الفواكه ، وفي اللحظة نفسها أمرت يوسف الصديق أن يخرج عليهن ، فخرج عليهن يوسف فألهاهن حسنه وجماله عن قطع الفواكه التي في أيديهن ، فجرحن بها أيديهن ، وقلن جميعاً : "حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ" [يوسف : ٢٣١] ، وهنا شعرت امرأة العزيز بأنها انتصرت عليهن ، وقالت : هذا هو العبد الذي لمتني فيه ، فانظرن كيف كان افتنانكن به؟ ثم أبدت امرأة العزيز بأنها راودته عن نفسه ، ولكنه امتنع امتناعاً شديداً ، وإن لم يقبل دعوتي ولم يلب طلبي فستكون عاقبته عنيفة ، إما السجن والحبس ، أو الإذلال والإهانة ، فاستنجد يوسف بربه ودعا إليه وهو يكشف ذلته وخضوعه وضعفه حسب الطبيعة البشرية ، وقال : "رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ" [يوسف : ١٣٣].

نكتة: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها ، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى ، بسبب تفردھا بيوسف ، وافتنانها بحسنه وجماله ،

وحنينها الشديد له من أجل ذلك، الأمر الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

يوسف في السجن:

وهنا أدركته عناية الله ولطفه وكرمه، لكي يحفظه ويصونه من كيدهن، ولكن امرأة العزيز لا تزال في مكيدة مع يوسف الصديق فبدأ للعزيز أن يسجن يوسف لأيام معدودات، لأن يكون يوسف بعيداً عن مكيدتها، فدخل يوسف السجن ومعه فتيان، وما لبث يوسف حتى اشتهر فيه بعلمه وأمانته وعلمه بتأويل الرؤيا، والإحسان إلى المسجونين.

تأويل الرؤيا، والدعوة إلى الله:

ذات مرة رأى صاحباً يوسف (وهما فتيان) مناماً، رأى أحدهما أنه يعصر خمراً، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، والطير تأكل منه، وقالوا: "إنا نراك من يحسنون تأويل الرؤيا، فأخبرنا بتأويله، فانتهاز يوسف الفرصة لدعوتهما إلى الله الواحد وتعليمهما الشريعة الإلهية، وقال: "لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ"

ويدأ يوسف يدعوها إلى طريق السعادة والنجاة، وذلك بتوحيد الله ونبذ عبادة الأوثان: "يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [يوسف: ٣٩ - ٤٠].

نكتة: لا بد أن يبدأ الإنسان بالأهم فالأهم، فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

وبعد أن بلغ يوسف الرسالة وأدى الأمانة، حيث إنه رسول من الله تعالى، جعل يخبرهما بتأويل رؤياهما، فقال: "يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ مَا يَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ" [يوسف: ٤١]، وهذا هو تأويل رؤياكما، ثم أوصى الذي كان يعتقد عنه أنه يحصل له الخلاص من السجن بأن يذكره عند الملك، ولكنه أنساه الشيطان أن يذكره عند الملك، فمكث يوسف في السجن بضع سنين، بعد أن مرت على يوسف عدة سنين قد رأى ملك مصر رؤيا عجيبة غريبة، وقال للملأ: "إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِيْمَانَ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ" [يوسف: ٤٣ - ٤٤] فتذكر الفتى الذي كان قد نجا من السجن علم يوسف بتأويل الرؤيا، فيطلب

من الملك وحاشيته أن يرسلوه إلى السجن ليأتيه بالخبر اليقين، فسمع له بلقاء يوسف في السجن فدخل عليه وتلطف معه في الحديث، ثم قال له: "يوسفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ" [يوسف: ٤٦] وشرع يوسف في تفسير رؤيا الملك وأولها أحسن التأويل: "تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادًا يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ" [يوسف: ٤٧- ٤٩].

نكتة: من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى فيها العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناح من الفتيين: "اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ" [يوسف: ٤٢].

نكتة: ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم.

نكتة: ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودينه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام

لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخضبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

براءة يوسف من التهمة:

ومن هنا انتهى دور البلاء من حياة يوسف، وجاء دور الرخاء وافتتح دور مشرق في حياته، وذلك أن الملك قد أعجب بتأويل يوسف غاية الإعجاب، فأصدر أمراً بإخراجه من السجن، ليجعله من المقربين، ولكن يوسف أبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن يتكشف أمره الذي وقع بينه وبين النسوة اللاتي قطعن أيديهن، فاستخبر الملك النسوة عن حقيقة أمر يوسف: "قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْأَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ" [يوسف: ٥١]، وهذا هو اعتراف صريح ببراءة يوسف على رؤوس الأشهاد فقال يوسف الصديق: "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ" [يوسف: ٥٢].

يوسف كوزير المالية في مصر:

وطلب الملك الآن من حاشيته أن يأتوا بيوسف الصديق، ليجعله من خاصته وأهل مشورته، فلما وصل يوسف إلى الملك ولقيه، قال الملك له: إنك اليوم عندنا رفيع المنزلة، مؤتمن على كل شيء في هذه المملكة، في هذه اللحظة التي يواجه فيها الناس الأزمة الاقتصادية، وهنا انطلق لسان يوسف وطلب منه أن يسلمه الشؤون المالية الاقتصادية.

فأصبح يوسف عليه السلام وزيراً في مملكة مصر، وحصل له العز والسلطان والتمكين في الأرض، وإليه أشار القرآن الكريم:

"وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" [يوسف: ٥٦ - ٥٧].

نكتة: لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل ، إذا كانت في ذلك مصلحة عامة ولم يقصد به العبد الرياء ، وسلم من الكذب ، ليقول يوسف : "اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ" [يوسف: ٥٥] وكذلك لا تدم الولاية ، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده ، وأنه لا بأس بطلبها ، إذا كان أعظم كفاءة من غيره ، وإنما الذي يُذم ، إذا لم يكن فيه كفاية ، أو كان موجوداً غيره مثله ، أو أعلى منه ، أو لم يرد بها إقامة أمر الله ، فهذه الأمور ، يُنهى عن طلبها ، والتعرض لها.

نكتة: إن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة ، وإن خير الآخرة له سببان : الإيمان والتقوى ، وإنه خير من ثواب الدنيا وملكها ، وإن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه ، ويشوقها لثواب الله ، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها ، وهي غير قادرة عليها ، بل يسلبها بثواب الله الأخرى ، وفضله العظيم لقوله تعالى : "وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" [يوسف: ٥٧].

إخوة يوسف في مصر:

مرت سنوات على تحمل يوسف عليه السلام أعباء الدولة والإشراف على زراعة الأرض وشؤون البلاد حتى عمَّ الجذب ، والناس يواجهونه ، ومنهم أهل يوسف وعشيرته فحضر إخوة يوسف مصر طلباً

للميرة، أما يوسف فقد عرفهم، وإخوة يوسف لا يعرفونه تماماً، فأمر يوسف عليه السلام بضيافتهم وإكرامهم، وأمر بأن يعطى كل واحد من إخوته العشرة حمل بعير من الطعام، وأن يرد إليهم ثمن تلك الميرة فوضعه الموظفون في رحالهم، لأن يعودوا إليه مرة ثانية، وأكد لهم يوسف أن يأتوا مرة ثانية بأخيهم الصغير ليزدادوا نفعاً ومالاً، وإلا فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة، ثم رجعوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، فأذن لهم يعقوب عليه السلام على كره منه بعد إلحاح شديد، فلما جاءوا إلى يوسف مرة ثانية كان معهم أخوهم الصغير بنيامين فسرَّ يوسف عليه السلام أشد السرور بقاء أخيه الصغير، وعرفه بنفسه: "قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" [يوسف: ٦٩].

نكتة: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته "أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ" [يوسف: ٥٩].

بنيامين في مصر:

ثم جعل يوسف عليه السلام يدبّر حيلة لإبقاء أخيه بنيامين عنده، فأمر بأن تجعل السقاية في متاع أخيه، وما إن غادروا مصر حتى نودوا من بعيد "أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ" [يوسف: ٧٠]، فوقفوا متحيرين على هذه التهمة، والتفتوا إليهم يسألونهم ماذا فعلتم، وماذا أضعتم؟ قالوا: لقد فقدنا صواع الملك، ومن يحضره ينال مكافأة ثمينة، فقالوا: لقد علمتم من حالنا ومظهرنا أننا ما جئنا لنفسد في أرضكم، ولسنا ممن يوصف بالسرقة، فما يقع منا

مثل هذا الفعل الشنيع ، فأمر الملك بتفتيش أوعيتهم ، فإذا الصواع في وعاء بنيامين ، وهذا هو التدبير الذي دبر الله لاستبقاء بنيامين عند يوسف لأن يرفع درجاته ، وفي ذلك قوله تعالى "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ" [يوسف: ١٧٦].

لما وجد الصاع في رحل أخيهم بنيامين ، نكسوا على رؤوسهم حياءً وخجلاً ، وأقبلوا على أخيهم يلومونه ويقولون: إن يسرق هذا فقد سرق أخوه من قبل ، وأرادوا به يوسف ، وهنا يتبرأ يوسف عليه السلام من هذه التهمة الفضيحة ويكظم غيظه .

وحينما أيقن الإخوة بأمر أخيهم الصغير راحوا يتلطفون ويترحمون باسم والدهم الشيخ الكبير ويعرضون على العزيز أن يأخذ أيّ واحد منهم مكانه : إنا نراك من المحسنين ، قال يوسف عليه السلام: نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً مكان المجرم ، إذاً لنكونن من الظالمين ، ولما استياسوا من إنقاذ أخيهم ، جعلوا يتشاورون ، يقول كبيرهم : هل نسيت الميثاق الذي قطعتموه على أنفسكم أمام أبيكم برد أخيكم ، وما وقع في أمر يوسف من قبل ؟ فبأي شيء تحضرون أباكم ؟ وماذا تجيبونه عن فقد بنيامين ، ويوسف قبله فارجعوا أنتم إلى أبيكم ، وأما أنا فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها ، أو يحكم الله لي أمراً .

نكتة: استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره ، أو الرافعة لها بعد نزولها ، غير ممنوع ، بل جائز ، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر ، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر ،

لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: "يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ
وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ" ليوسف: ١٦٧.

ابتلاء عظيم ليعقوب عليه السلام:

فرجعوا إلى أبيهم وأخبروه بحقيقة ما جرى، ولكن يعقوب عليه
السلام لم يصدقهم فيما بلغوه من هذا الخبر المفجع، وقال "سَوَّلْتُ لَكُمْ
أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً" ليوسف: ١٨٣،
فتنحى جانباً عنهم وخلا بنفسه وحيداً فريداً فذكر المصاب الجديد
بالمصاب القديم، حتى فقد بصره من شدة الحزن والألم، قال "يَا أَسْفَى
عَلَى يُوسُفَ وَأَيُّضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ" ليوسف: ١٨٤.

وحينما لاهمه أبنائه على حزنه وألمه على يوسف بقولهم: "إنك
لا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه بالحزن والبكاء" قال يعقوب عليه
السلام لهم قولة المؤمن الواثق بفرج من الله: "إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي
إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ليوسف: ١٨٦، ثم وجههم إلى
البحث عن يوسف وأخيه بنيامين، وأوصاهم بأن يظنوا بالله خيراً، ولا
يسري في نفوسهم يأس وقلوب ولا كد في البحث عنهما، فإن رحمة
الله واسعة، وفرجه قريب، فلا عجب بأن يأتي الله بهما جميعاً.

فدخل إخوة يوسف مصر مرة ثالثة ومعهم بضاعة رديئة،
فيعرضون طلبهم على العزيز قائلين له "أيها العزيز! إنما نواجه نحن وأسرتنا
المجاعة الشديدة والآلام القاسية في هذه الأيام التي نمر بها، وذلك ما قال
الله عز وجل "قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ
قَاوُفٍ لَّنَا الْكِيلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ" ليوسف: ١٨٨،

هنا رحم يوسف عليه السلام إخوته وترقرقت الدموع في عينيه بما سمع من بؤس الحال، وقلة المال وشدة الحاجة، حتى طلبوا منه أن يتصدق عليهم، وهنا لم يقدر يوسف عليه السلام على كتمان ما خفي عليهم من الحقيقة، فقال: "هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ" [يوسف: ٨٩] فتحير الإخوة وتعجبوا بما تكشف عليهم السر، فقالوا "أَيْنِكَ لَأَنْتَ يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي" [يوسف: ٩٠].

نكتة: سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير متنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجزه أشد المعالجة ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله "بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً" وقال لهم في الأخ الآخر: "هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ" [يوسف: ٦٤].

التقوى والصبر:

ثم ذكر النعم التي أكرمها الله وأخاه بها، وأنعم عليهما بالاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والخلاص من البلاء، ثم علل ذلك الفضل بقوله "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [يوسف: ٩٠]، وهنا اعترف إخوته بأنهم كانوا مذنبين خاطئين، ولكن يوسف عليه السلام لم يؤاخذهم على سوء الفعال، وقال: لا تثريب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ولا عقوبة لكم، بل أعفو عنكم وأصفح وأستغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، ثم سألهم عن أبيهم فأخبروه بما حلَّ به من الحزن والألم، فحينئذ أعطاهم قميصه، وقال "أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْتَمِسُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصَبْرًا" [يوسف: ٩٣]، وأكدهم في ختام قوله بأن يأتوه بجميع الأهل والذرية والأولاد والأزواج

إلى أرض مصر، وعندما خرجوا من مصر متوجهين إلى كنعان، قال يعقوب عليه السلام مبشراً لأهله وذوي قريبه: إني لأجد ريح يوسف، فقال له أحفاده وأقاربه: لقد كنت في ضلال قديم من حب يوسف، فلما جاء البشير وألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فصار مبصراً من شدة الفرح والسرور، فعند ذلك قال يعقوب عليه السلام: "أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" [يوسف: ٩٦] فهناك طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم بما صنعوه مع يوسف قال: "سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" [يوسف: ٩٨].

نكتة: الفرج مع الكرب؛ وإن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم بالجميل.

نكتة: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: "يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ" [يوسف: ٨٨] ولم ينكر عليهم يوسف.

نكتة: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: "قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [يوسف: ٩٠].

أسرة يعقوب في مصر:

آن الأوان لدخول يعقوب عليه السلام مصر مع أهله وأسرتِه فاستقبلهم يوسف عليه السلام استقبالاً حاراً، وأمکنهم بغاية التّجیل والتّکریم، وقال لهم مبتهجاً: "ادخلوا مصر إن شاء الله آمین" [يوسف: ٩٩]، فهنا قام يوسف عليه السلام إلى أبويه وضمهما وعانقهما ثم أجلسهما على سرير الملك بجواره فخضع له أبوه وأمه وإخوته سُجداً لإجلاله وعظمتِه، فذكر يوسف عليه السلام ما ذكره ورفع صوته وهو يقول: "يا أبتَ هذا تأويلُ رؤياي من قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" [يوسف: ١٠٠].

دعاء يوسف عليه السلام:

إن سيدنا يوسف عليه السلام خلال هذه النعم والمن والعز والسعادة يذكر الله تعالى ولا ينساه، ويشكره ولا يكفره، وينطلق لسانه بذكر نعماء الله تعالى وشكر آلائه: "رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ" [يوسف: ١٠١].

هنا تنتهي قصة يوسف عليه السلام وما فيها من عظات وعبر وأحداث عجيبة على هذا الدعاء الحافل بمشاعر الحمد والثناء، ثم ذكر القرآن الكريم الغرض الأساسي برد القصة وهو إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بما واجه الأنبياء من أحوال ومشاق من قبله،

فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرفها لو لا أن الله عز وجل أوحاها إليه لأنه لم يعاصرها ولم يدرك زمنها.

ولا شك أن قصة يوسف قصة ساذجة محتوية على حياة يوسف عليه السلام من مرحلة الحداثة إلى الكهولة، بل إنها مشتملة على علوم ومعارف وجوانب بلاغية وأساليب فنية، وهي مفعمة بدروس وعبر من الأخلاق والدعوة والصدق والطهارة والصبر والاستقامة والمودة والمحبة، والثقة بالنصر والعزة من الله تعالى.

نكتة: ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة ليقول يوسف عليه الصلاة والسلام: "رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَكَئِى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوَفِّي مَسْئَلَةَ الْمُسْئِلِينَ وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ" [يوسف: ١٠١].

وخاتمة السورة تشمل على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، واتخاذ التقوى شعار المؤمنين لكي تكون عاقبتهم الهدى والرحمة، وذلك ما صرح الله سبحانه به.

فيقول: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [يوسف: ١١١].

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الكتاب

٣	بين يدي الكتاب
٦	تقديم من الكاتب
١١	القصة وعناصرها
١١	مميزات القصة الإسلامية
١٢	حياة مليئة بالمحن والابتلاءات
١٤	قصة يوسف
١٤	رؤيا عجيبة
١٤	نكتة
١٤	حسد إخوة يوسف
١٥	رجوع الإخوة وبكاؤهم عند يعقوب عليه السلام
١٦	قافلة أخرجت يوسف من البئر
١٦	محنة شديدة في قصر مصر
١٨	نكتة
١٩	يوسف في السجن
١٩	تأويل الرؤيا، والدعوة إلى الله
٢٠	نكتة
٢١	نكتة
٢١	نكتة

٢١	نكتة
٢٢	براءة يوسف من التهمة
٢٢	يوسف كوزير المالية في مصر
٢٣	نكتة
٢٣	نكتة
٢٣	إخوة يوسف في مصر
٢٤	نكتة
٢٤	بنيامين في مصر
٢٥	نكتة
٢٦	ابتلاء عظيم ليعقوب عليه السلام
٢٧	نكتة
٢٧	التقوى والصبر
٢٨	نكتة
٢٨	نكتة
٢٨	نكتة
٢٩	أسرة يعقوب في مصر
٢٩	دعاء يوسف عليه السلام
٣٠	نكتة
٣١	فهرس الكتاب